الرؤية السوسيولوجية للانتفاضة الفلسطينية

للدكتور أحمد على بيلى - مدرس بقسم الاجتماع

بكلية البنات جامعة عين شمس

بسم الله الرحمن الرحيـــم

الرؤية السوسيولوجية للانتفاضة الفلسطينية

للدكتور احمد على بيلى ـ مدرس بقسم الاجتماع
بكلية البنات جامعة عين شمس

تهدف هذه الدراسة الى ابراز القضايا الاجتماعية والسياسية للكفاح الفلسطينى المعاصـــر، الذى تمثل فى الانتفاضة ، ثم تأثيراتها المختلفة سواء على الصعيد المحلى أو القومى أو العالمى ٠

وتأتى أهمية الانتفاضة الفلسطينية ، فى انها ليست نمطا تقليديا للحرب أو الثورة فهـــى نموذج فريد لقضية فريدة ، لشعب حرم من كل أرضه وليس من جزء منها ٠ كما أن الشعب بكـل طوائفه هو الذى تصدى لها ، وليس الجيش كما فى حالة الحرب أو الثورة ٠ هى اذن نمـــط فريد من انماط الكفاح ٠

والانتفاضة هى الخط الفاصل فى التاريخ النضالى الفلسطينى من أجل الاستقلال ، كما أنها تعتبر علامة واضحة فى حركات الاستقلال فى العالم الثالث تكتسب اهميتها كذلك من ظهور دور الشباب فى العمل السياسي ذلك لأن عام ١٩٨٨ يمثل نهاية العقد الثانى للاحتلال الاسرائيلى للضفة الغربية وقطاع غزة ، كما يمثل ايضا العيد الأربعين لتأسيس دولة اسرائيل ٠ ويعنـــى ذلك أن جيلين قد نشأ تحت الادارة الاسرائيلية فى الجليل والضفة وغزة ٠ هذا الى جانـــب أن ٦٠٪ من سكان الضفة وغزة تحت ١٧ عاما ، وهذه الفئة العمرية من الشباب هى التى تمثل القوة الأساسية التى تواجه سلطات الاحتلال ٠ وهنا يظهر السن كعامل مهم حيث بدأ الشبـــاب يفقدون الاحساس بالخوف من الموت (١) .

الاتجاه النظرى للدراسة :

نعرض للانتفاضة ـ انطلاقا من طبيعتها وجوهرها ـ من خلال تراث علم اجتماع الثورة ، حتى نتلمس جذورها وصيباتها ثم سيرها ونتائجها وتمثل الانتفاضة الحركة الرابعة الرئيسية للدفاع عن الوطن القومى الفلسطينى • حيث كانت الأولى من عام ١٩٢٦ الى عام ١٩٣٩ وهى التى تمثل التمرد ضد سلطات الانتداب البريطانى •

و الثانية : من عام ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨ وهى التى تمثل مقاومة تقسيم فلسطين •

و الثالثة : من عام ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥ وهى مرحلة تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية •

وعلى خلاف كل هذه الحركات السابقة ، فقد نجحت الانتفاضة فى أن تؤلف بين الكبار والصغار والرجال والنساء وسكان المدن والقرى والمخيمات والمسلمين والمسيحيين والفقراء والاغنياء وكل التيارات والسياسية ليشكلوا جميعا حركة شعبية حقيقية •

وهكذا فانه يمكننا ان نعتبر الانتفاضة بمثابة التعبير الحى للرغبة الفلسطينية الجماعية فى بعث الوعى القومى والمقاومة واعادة الحقوق الفلسطينية •

أما عن الجذور التاريخية للانتفاضة ، فاننا نستطيع التعرف عليها ، من خلال نظريات العنف الجماعى التى يمكن تصنيفها فى ثلاث نماذج رئيسية: (٢) •

١ ـ نموذج الازعاج الخارجى : الذى يرتكز على حائزى القوة ، الذين يساندهم المتمردين ، ويقترب هذا النموذج من الثوريين ، وبدرجة أقل مثيرى الاضطرابات العامة • ويمثل هذا النموذج العلاقة بين منظمة التحرير والقوى الفلسطينية فى الأراضى المحتلة •

٢ ـ النموذج البركانى : ويفضله علماء الاجتماع الغربيين وعلماء السياسة ، وهو الذى يعزى الى الحوادث الهامة للعنف الجمعى ، الذى يمكن أن يفسر كنتيجة لوجود الجماهير الناقمة التى تمتلك العقلية الثورية • ومن خلال هذا المنظور فان الثورة الجماعية مثل الانتفاضة، ينظر اليها على أنها ظهور عفوى لغضبة الجماهير •

٢ ـ نموذج العملية السياسية : وهو الذى يتضمن السياسة بوسائل أخرى ، التى تعتبر أفضل من السلوك غير الطبيعى • ولعل هذا النموذج الثالث هو الذى يمثل افضل بداية نظرية لتحليل أصل واستمرار ديناميات الانتفاضة •

القضايا الاساسية للدراسة :

تبدو القضية الأولى من خلال استخدام التحليل السوسيولوجى للانتفاضة بالتعرف أولاعلى جذورها الاستعمارية التى تتمثل فى القمع السياسى والاستغلال الاقتصادى والاجتماعى السيء ، الذى مارسته اسرائيل على المجتمع الفلسطينى ، ثم انعكاسات هذا الاتجاه الذى أدى بدوره الى تخريب النظام الاقتصادى والاجتماعى والثقافى والايديولوجى • ومن خلال نموذج العملية السياسية ، نجد أن الانتفاضة هى ممارسة للسياسة بطرق أخرى ، تلك السياسة التى مارستها فى مواجهة ممارسات الاحتلال الاسرائيلى على اقتصاد الضفة الغربية وقطاع غزة ، التى تمثلت فى احتكار السلطة الاسرائيلية للأرض والطاقة والمياه • وكان رد الفعل الفلسطينى ايجابيا : حيث اهتم بحماية المنتجات الفلسطينية ومقاطعة البضائع الاسرائيلية ، ورفع مستوى الوعى الاستهلاكى ، والامتناع عن دفع الضرائب لسلطات الاحتلال • الى جانب اضرابات العمال ، من خلال القيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة • وهى التى عبر عنها بجلاء النداء رقم (٦) الصادر عن منظمة التحرير الفلسطينية والقيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة بتاريخ ١٩٨٨/٢/٣ (٣) •

وقد واكب ظهور الوعى الاقتصادى فى الأراضى الفلسطينية المحتلة ، ازدهار الوعى السياسى ، الذى أدى الى تعاظم العملية السياسية فى الفترة ١٩٦٧ ـ ١٩٨٧ استمرارا لفكرة الكفاح المسلح ، التى بدأت فى العقد السابق (١٩٥٧ ـ ١٩٦٧) التى قادتها حركة فتح ومنظمة التحرير الفلسطينية •

ويمكن أن نجمل المعالم الرئيسية للعمليات السياسية ، التى سهلت مولد الانتفاضة فى ثلاثة عوامل اساسية وهى :ـ

١ ـ تكثيف الحركة القومية الفلسطينية ٢ ـ بلورة الوعى القومى الفلسطينى •

٣ ـ الجمعيات والتنظيمات الرسمية •

حيث كانت بداية مرحلة النهضة القومية (١٩٧٢ ـ ١٩٧٥) بتأسيس الجبهة القومية الفلسطينية ، التى كانت لها مهمة ثقافية ، وهى حماية الثقافة العربية والتاريخ العربى الفلسطينى من التشوية الصهيونى • ثم النهضة السياسية الثقافية ، من خلال حركة العمل التطوعى فى عام ١٩٧٢• ثم كانت مرحلة بناء الحركة القومية (١٩٧٦ ـ ١٩٨١) فى شكل هياكل للعمل السياسى الاجتماعى والثقافى ، بظهور لجنة الارشاد القومى فى عام ١٩٧٨ ، التى تكونت من التنظيمات المهنية والاتحادات التجارية ، وحركة الطلبة والجمعيات الخيرية والتنظيمات النسائية والمؤسسات الدينية • ومارست عملها من خلال :

١ ـ التنظيمات الجماهيرية •

٢ ـ المنتديات الثقافية

٣ ـ المنتديات الأدبية •

٤ ـ وأخيرا المنظمات القومية •

ثم كانت المرحلة الأخيرة (١٩٨٢ ـ ١٩٨٧) وهى مرحلة اندماج الحركة القومية كرد فعل لطرد المقاومة الفلسطينية من لبنان ، مما أدى لظهور التحديث السياسى والاتجاه نحو العمال والطلبة والجمعيات الاسلامية فى الجامعات ، الى جانب تنظيم الجهاد الاسلامى فى غزة • وهنا ظهر بناء جديد من النساء والعمال وشباب القرى ومخيمات اللاجئين •

وكانت احد معالم هذه المرحلة الهامة ، ظهور فعالية البناء التحتى للمقاومة من خلال الاحوال الصحية للأراضى المحتلة • ذلك أن برنامج الصحة الفلسطينى يمكن أن يعكس لنا جانبا من المحتوى الاجتماعى للكفاح الفلسطينى • حيث كانت السلطات العسكرية الاسرائيلية تستخدم الخدمات الصحية كأداة للضبط السياسى •

ويوضح لنا ذلك واقع الأحوال الصحية الفلسطينية مثل ارتفاع معدل الوفيات (٥٠ ـ ١٠٠٪ فى عام ١٩٧٠ ، ١٤٪ فى اسرائيل عام ١٩٨٥ ـ عدد الأطباء ٨ لكل عشرة آلاف من السكان فى عام ١٩٨٦ وفى اسرائيل ٢٨ لكل عشرة آلاف)[٤] • ثم ماقام به النظام الصحى فى مواجهة هذا الواقع مثلما ظهر فى دور مستشفى المقاصد بالقدس ، وجمعيات الهلال الأحمر فى الضفة الغربية وغزة ، ممثلا فى "حركة الصحة البديلة" للمشاركة الشعبية فى حل المشكلة

الصحية ، من خلال المتطوعين من مختلف قطاعات المجتمع والتنظيمات السياسية والاجتماعية والمتطوعين من الرجال والنساء وظهرت هذه الجهود ممثلة فى :

١ ـ زيادة عدد الأطباء .

٢ ـ تحسين غرف الطوارئ وخدمات الاسعاف .

٣ ـ نشر الخدمات الصحية المطلوبة فى القرى ومخيمات اللاجئين ، التى لايستطيع سكانها الذهاب للمستشفيات فى المراكز الحضرية .

وهكذا فقد ظهر النسق الطبى " المستقبل " كنتيجة لجهود الحركات الصحية القومية كتحد قومى للسلطات العسكرية الاسرائيلية .

القضية الثانية : تهدف الى التعرف على التطور الدينامى للانتفاضة من خلال المشاركين فيها وأدوارهم المختلفة . ونعرض لهم فيمايلى :ـ

١ ـ اللاجئون الفلسطينيون فى المخيمات :

وهم الذين يمثلون ٥٠٪ من سكان الضفة وغزة ، ويبلغ عددهم حوالى ٨٥٠ ألف لاجئ ، وهم الذين عاشوا عشرين عاما من الاضطهاد وعشرين عاما من المقاومة ، من خلال التنظيمات السياسية والاجتماعية ، التى كانت تنقسم الى ثلاث فئات رئيسية :

١ ـ السياسيون القوميون .

٢ ـ الحركة الدينية

٣ ـ المستقلون .

وهم الذين فجروا شرارة الانتفاضة فى ٩ ديسمبر ١٩٨٧ فى معسكر جباليا ، بدأت المظاهرات الضخمة ، ثم ظهرت حركة الشباب فى الدفاع عن مخيماتهم المحلية ضد هجمات الجيش بتنظيم :

أ ـ لجان الحراسة

ب ـ اللجان المركزية فى كل معسكر

ج ـ اللجان الشعبية (مثل لجان اغاثة الطعام ـ اللجان الطبية ـ التعليمية ـ الاعلامية)

د — اللجنة العليا بالمعسكر .

وكان رد الفعل الاسرائيلي :

أ — استعمال الذخيرة الحية

ب — الغاز المسيل للدموع

جـ — الاعتقال .

د — حظر التجول والحصار

هـ — تقييد الحركة بزيادة عدد السجونين وترحيل غير المرغوب فيهم

و — بيع المنازل وتدميرها بالقنابل

وسقط الكثير من الشهداء والمصابين ، بفعل هذه الاجراءات العسكرية التأديبية ، كما يتضح من الجدول التالي :

جدول رقم (١) عدد الشهداء موزعين على المناطق والأحياء ونوعهم في الفترة من ١٩٧٨/١٠/١ حتى ١٩٨٨/١٢/٣١م.

المناطق	العدد	النسبة المئوية	الأحياء	العدد	النسبة المئوية	النوع	العدد	النسبة المئوية
الضفة الغربية	٣٠٤	٦٠٪	المدن والقرى	٣١٠	٦١٫٥٪	ذكور	٤٣٨	٨٧٪
قطاع غزة	٢٠٠	٤٠٪	المخيمات	١٩٤	٣٨٫٥٪	اناث	٠٦٦	١٣٪
المجموع	٥٠٤	١٠٠٪	المجموع	٥٠٤	١٠٠٪	المجموع	٥٠٤	١٠٠٪

وانا كان هذا الجدول يوضح لنا اشتراك الفلسطينيين في الضفة وغزة في الكفاح وكذلك في الاستشهاد ، سواء من سكان المدن والقرى أو المخيمات ، وسواء الذكور أو الاناث فقد اشتركت جميع الأعمار في الانتفاضة في الاستشهاد ، وذلك كما يوضح الجدول التالي :

جدول رقم (٢) فئات اعمار الشهداء (٦)

السـنـ	العدد	النسبة المئوية	السـنـ	العدد	النسبة المئوية
من صفر ـ خمسة	٣٨	٧٫٥٪	من ٢١ ـ ٣٠	١٧٢	٣٤٪
من ٦ ـ ١٠	٠٥	١٪	من ٣١ ـ ٤٠	٠٣١	٠٦٪
من ١١ ـ ١٦	٦٣	١٢٫٥٪	من ٤١ ـ ٦٠	٠٤٤	٠٩٪
من ١٧ ـ ٢٠	١٢٢	٢٤٪	أكثر من ٦٠	٠٢٩	٠٦٪

ويوضح هذا الجدول بداية ـ كما ذكرنا قبل ذلك ـ أن جميع الفئات العمرية قد اشتركت لانتفاضة وكذلك الاستشهاد ، سواء الأطفال أو الشباب أو الشيوخ . كما يوضح ثانيا أن اعلى ين للاستشهاد (٣٤ ٪ ، ٢٤ ٪) كانت بين الشباب بصفة رئيسية ، بمعنى أن٥٨٪ لمشتركين فى الانتفاضة والذين استشهدوا ، كانوا من بين الشباب فى الفئات العمرية بين عاما ، و٣٠ عاما .

ولم تكن الاجراءات القمعية وسقوط هذا العدد من الشهداء ، مبعثا لليأس بين طبقات مع ، بل أدى ذلك الى ظهور درجة عالية من التضامن الاجتماعى فى المجتمع ، لم تظهر بين الفلسطينيين من سكان المخيمات ، بل انها ظهرت ايضا بين الفلسطينيين فى اسرائيل اخذوا فى جمع التبرعات من الجمعيات اليهودية والحربية على السواء . هذا الى جانب منظمة الأمم المتحدة للغوث والاغاثة فى مساندة الانتفاضة .

أما عن النتائج السوسيولوجية للانتفاضة فى هذا المجال ، فقد ارست اتجاهات ومقاييس ة فى المجتمع الفلسطينى ، حيث تحولت الجنازة الى زفة ، والزواج اصبح بدون مهور ،وظهرت رة الاستشهاد كشئ مفزع بالنسبة للعدو الاسرائيلى ، الذى حاول سلب الفلسطينيين شرف شهاد ، لانهرأى فيها شيئا آخر رغم الادعاء بعلمه باجتماعيات الشعب الفلسطينى ومعتقداته تحول الاعتقاد فى الموت الى شئ آخر تماما عند الفلسطينيين ، فاذا كان قتل الجندى عند رائيليين شيئا مخيفا ، تتحول جنازته الى مناحة وصراخ وشد الشعر ، ولاترفع العرا ـــم

العسكرية والموسيقى من هيبة الأمر ، اذا انهم يرون شيئا اخر فتحت الانتفاضة اعينهم عليه ، حيث اكتسبت ظاهرة الموت معنى جديدا من خلال الاستشهاد وأصبح الشهيد يودع بشهيد ، وبكاء الفلسطينيين على القبور ، يتحول الى زغاريد ، وتوزع الحلوى فى أماكن العزاء بدلا من القهوة السادة المرة (٧) .

٢ — الفلاحـــون :

وقد كان دورهم بارزا ذلك لأن ٦٤٪ من سكان الضفة يعيشون فى القرى و١٠٪ فـــى المخيمات . وقد كان رد الفعل من السلطات الاسرائيلية ضدهم قاسيا من خلال نظام عنيـــف لحظر التجول . وقد تمثل هذا النظام فى عدد من الاجراءات .

(١) المظاهرات فى غزة بدءا مـــن ٩ ديسمبر ١٩٨٧ ، مما أدى الى ظهور سياسة جديـــدة للاحتلال شملت :

(أ) حظر التجول (ب) الحرب الاقتصادية (جـ) سحق النظام

(٢) الحرب الاقتصادية التى بدأت بسيطرة اسرائيل على كل الموارد الاقتصادية من أجل قمـــع الانتفاضة وظهرت اللجان الشعبية الزراعية كرد فعل لهذه الحرب :

٣ — المـــرأة :

ظهر دور المرأة واضحا حيث تركت الكثيرات من النساء المنزل وخرجت الى الشارع تمـــارس دورها السياسى فى مقاومة الاحتلال الاسرائيلى من أجل حماية اطفالها ، وتوفير الاحتياجـــات الضرورية للمناضلين الفلسطينيين . ولم يعد لديها الاعتقاد التقليدى بأن مكانها الطبيعى هـــو المنزل ، فهى ليست اقل من المرأة المصرية التى مارست دورا سياسيا بارزا فى ثورة ١٩١٩ ، وليست اقل من المرأة الجزائرية ايضا (٨) .

ونستطيع ان نرصد دور المرأة الفلسطينية فى الكفاح الوطنى فى مرحلتين : قبل الانتفاضة ثم المشاركة فيها ، وذلك كمايلى :

ولا : قبل الانتفاضـــــة :

أ ـ بدأ دور المرأة الفلسطينية فى الحركة القومية ، بدءاً من اللجنة النسائية العربيـة عام ١٩٢٩ للاحتجاج على بيع الأراضى العربية لليهود .

ب ـ مشاركة النساء فى الريف فى نقل الأسلحة والطعام .

ج ـ التبرع بالمجوهرات لشراء الأسلحة .

د ـ انضمام النساء لعضوية الحركات السرية (مثل الحزب الشيوعى ـ حزب البعـث الحركة القومية العربية) .

هـ ـ المشاركة فى الأحزاب السياسية .

و ـ الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية فى عام ١٩٦٥

ز ـ مشاركة المرأة فى الكفاح المسلح - وكان هناك ثلاثة آلاف سجينه فى عام ١٩٧٩ (٩) .

ح ـ طليعة الحركة النسائية الفلسطينية فى عام ١٩٧٨ من خلال اليوم الدولى للمـرأة ولجنة عمل المرأة التى تضم النساء العاملات فى التنظيمات السياسية .

ط ـ اتحاد لجنة المرأة العاملة الفلسطينية فى عام ١٩٨٠م.

ى ـ اللجنة النسائية للعمل الاجتماعى فى يونيه ١٩٨٢م.

نيا : دور المرأة فى الانتفاضة :

قد كان النشاط النسائى فى الانتفاضة من كل الأعمار والطبقات الاجتماعية كمايلى :

ـ المشاركة فى الاضرابات منذ ديسمبر ١٩٨٧

ـ قذف الحجارة

ـ حرق الاطارات

ـ نقل واعداد الحجارة

ـ بناء سدادات الطرق

ـ رفع الاعلام الفلسطينية

ـ منع الجنود من اعتقال الرجال

٨ - توزيع المنشورات

٩ - تقوية الاقتصاد المنزلى

١٠- المعاناه من تغيير مفهوم شرف المرأة

٤ - الطبقة العاملة :

كان أكثر من ٥٠٪ من قوة العمل فى الأراضى المحتلة تعمل فى اسرائيل . ومن هنا تبدو اهمية دور العمال فى الانتفاضة ، الذى بدأ محدودا بعد حرب ١٩٦٧ ، ثم تغير الموقف فى السبعينات بظهور جبهة اتحاد العمال فى عام ١٩٧٩ . واشترك العمال فى المظاهرات بصورة جدية لدرجة ان حوالى ٥٠٪ من الخسائر فى الفترة من ديسمبر ١٩٨٧ وحتى اكتوبر ١٩٨٨ كانت من العمال .

وبظهور القيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة فى يناير ١٩٨٨ ، كان للعمال دور كبير فى مقاومة الاحتلال من خلال الاضراب العام . ثم ترك العمال العمل فى اسرائيل ليعودوا للعمل فى الزراعة وعاقبتهم السلطات الاسرائيلية على ذلك . ثم ظهرت بناءات بديله للجان العمالية فى المصانع ، تدعوا العمال لمقاطعة المشروعات الاسرائيلية . وظهرت جبهة العمال المتحدة واللجان العمالية لتحقيق بعض المكاسب العمالية (مثل تحديد ساعات العمل ودفع الأجور خلال الاضرابات) .

ونتيجة لذلك فقد عانى العمال من الخسائر بمعدل أعلى من أى قطاع آخر فى المجتمع .

٥ - تجار المدن :

كان دورهم منذ البداية محدودا ، تراوح بين المد والجزر . ذلك لأن أصحاب المحلات والمهن التجارية يمثلون الطبقة التقليدية المحافظة . الا أنهم ساهموا من خلال القيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة ، بدورهم فى الحرب الاقتصادية التى كان من مظاهرها :

١ - مقاطعة البضائع الاسرائيلية

٢ - عدم دفع الضرائب

٣ - خلق البديل الاقتصادى القائم على الصناعات القروية

٤ ـ الاضرابات التجارية

٥ ـ التصدى لحرب اصحاب المحلات

٦ ـ المؤتمر الصحفى الأول للتجار فى فبراير ١٩٨٨وقسم الدم الذى اشترك فيه حوالى ٣٠٠ مسلم ومسيحى من أصحاب المحلات ٠

٧ ـ اضراب التجار الذى اصبح كظاهرة يومية للانتفاضة ٠

٦ ـ الحركة الاسلاميـــــة :

ظهر الاسلام كبديل ايديولوجى وسياسى وعسكرى لنموذج الكفاح والاتجاه نحو اعادة تنشئـــة المجتمع على النهج الاسلامى من خلال المساجد والجامعات والأندية ٠ وقد ظهر الاتجاه الاسلامـى فى الضفة الغربية وغزة من عام ١٩٨٦ وحتى عام ١٩٨٨ من خلال حـركة الجهاد الاسلامـــى فى الأرض المحتلـة ٠ ثم ظهرت العمليات العسكرية كظاهرة جديدة منذ عام ١٩٨٢ بالتعـــاون مع منظمة التحرير الفلسطينية ٠ واختفت حركة الجها الاسلامى من المسرح السياسى الفلسطينـــى بسبب القمع الاسرائيلى لاعضائها ونشاطها ، ثم عادت للظهور مرة ثانية فى عام ١٩٨٨ وأستأنفـت نشاطها العسكرى ٠ وأخيرا ظهرت حركة المقاومة الاسلامية حماس بأيديولوجيتها الممثلة فى الجغرافيا التاريخية للمسألة الفلسطينية من خلال المنشورات بتنظيم الاضرابات العامة وأيام المواجهة مـــع العدو وقد كانت المساجد هى الأماكن الطبيعية لحركة حماس وخاصة فى قطاع غزة ٠ كما كانـــت تتمثل ايديولوجيتها ايضا فى عدم موافقتها على فكرة السلام ٠

٧ ـ الصفوات الفلسطينية فى الأراضى المحتلـة :

وهى التى تتألف من ثلاثة عناصر اساسية :

١ ـ القوى الوطنية

٢ ـ القوى العاصرة للأردن

٣ ـ القوى الاسلامية

أولا : القوى الوطنية : وهى التى استمدت مكانتها من تاريخها الطويل فى الكفاح ضـــد الاحتلال وارتباطها التنظيمى بالعناصر الخارجية ٠ لكن سياسة اسرائيل القمعية اجبرتها علـــى العمل فى الخفاء ولذلك فلم يكن دورها واضحا فى المجتمع ٠

ثانيا : القوى المناصرة للأردن : وهى التى تمثل الطبقة الوسطى ومعظمهم من الأردنيين ويرون ضرورة اشتراك الأردن فى أنها الاحتلال • ولذلك فلقد تبنوا " الخيار الأردنـــــــى" ومعظمهم من العاملين فى الأوقاف والصحة والتعليم •

ثالثا : القوى الاسلامية : وهى التى تكونت من ثلاث حركات سياسية نشيطة بالاضافـــة الى جماعات الوعظ الدينى • وتكونت بصفة أساسية من الاخوان المسلمين والجهاد الاسلامى وحزب التحرير الاسلامى • وقد لعبت هذه القوى دورا نشيطا نظرا لقوة قياداتها التنظيمية •

أما عن تأثير الانتفاضة على هذه القوات :

١ ـ فقد كانت القوى الوطنية اسرع فى التعامل مع الطبيعة الفردية للأحداث ، وعملت مع القيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة تحت شعار" لاصوت يعلو فوق صـــــــوت الانتفاضة "

٢ ـ اما بالنسبة للقوى المناصرة للأردن فقد سحبت الانتفاضة المجادة من تحـــــت اقدامها •

٣ ـ وبالنسبة للقوى الاسلامية ، فقد ظهر التأثير العظيم للجهاد الاسلامى فى مجال زيادة تعبئة الجماهير فى الفترة السابقة على الانتفاضة • ثم ظهرت حركـــــة المقاومة الاسلامية حماس لتكمل المسيرة الكفاحية •

القضية الثالثة : التحول الثورى للفلسطينين تحت الاحتلال وانعكاساته الاجتماعية :

بدأ هذا التحول بتكوين القوى القومية المناصرة لمنظمة التحرير الفلسطينية للقيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة ، التى تألفت من ممثلين لفتح والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والجبهـــة الديمقراطية لتحرير فلسطين والحزب الشيوعى الفلسطينى • وفى غزة ، ظهر ذلك من خـــلال التعاون مع الجهاد الاسلامى •

وقد كانت المنشورات هى الطريقة الكلاسيكية للقوى السياسية الفلسطينية ـ ككل الحركات الثورية ـ والتى بدأ توزيعها تطوعيا فى كل اسبوع تقريبا بين الجماهير والجماعات المتعاونه(١٠) وأصبحت المنشورات هى التعبير الحقيقى عن الآراء السياسية • حيث كانت تدعو لعدم الاستسلام

للممارسات الاسرائيلية فى الأراضى المحتلة . وظهرت نداءات المنظمة التى تناولت كافة الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية مثل :

١ ـ انهاء سياسة القبضة الحديدية

٢ ـ نبذ العنف

٣ ـ انسحاب الجيش من المدن

٤ ـ حل مجالس المدن والقرى والمخيمات

٥ ـ اطلاق سراح سجناء الانتفاضة

٦ ـ الغاء ضريبة القيمة المتزايدة

٧ ـ انهاء المصادرات واقامة المستوطنات

٨ ـ انهاء التعدى على المؤسسات التعليمية والاتحادية وغلقها .

ثم ظهرت اللجان الشعبية للانتفاضة ، كأبرزصور التضامن العضوى للمجتمع الفلسطينى من خلال "الجبرة " كرباط اجتماعى للجان الشعبية المتنوعة ، وكبناء اجتماعى بديل للمجتمع المحلى وشملت هذه اللجان مختلف قطاعات المجتمع : مثل لجان التعليم (التعليم الشعبى) واللجان الصحية ولجان تخزين وتوزيع الطعام ولجان الزراعة ولجان الأمن التى ظهرت كصورة مصغرة للضبط غير الرسمى فى المجتمع الفلسطينى من أجل الصلح والوساطة ومطاردة العملاء .

وتستمر اللجان الشعبية رغم تهديد اسرائيل وتتدعم اجتماعيا بالتماثل والتنسيق مع الجماعات السياسية - كما كان للاجراءات الاسرائيلية المضادة ـ على غير ماكانت تتوقع اسرائيل ـ دورها فى تقوية التحول الثورى .

القضية الرابعة : ردود الفعل المحلية والاقليمية والدولية للانتفاضة :

١ ـ ردود الفعل المحلية وهى التى تتمثل فى :

١ ـ دور منظمة التحرير الفلسطينية فى الانتفاضة

٢ ـ تأثير الانتفاضة على المجتمع الاسرائيلى

ونتناول كل منهما فيما يلى :

١ ـ دور منظمة التحرير الفلسطينية فى الانتفاضة :

ظهر ذلك الدور من خلال جهود زعيمها ياسر عرفات لدعمها منذ اليوم الأول ، مستخدما فى ذلك الرمز الدينى (من خلال غزوة بدر) ثم اطفال الحجارة تحت شعار وحدة الشعب الفلسطينى داخل وخارج الأرض المحتلة ، ومواصلة المقاومة حتى تحريرالوطن الى جانب النشاط الاعلامى لقادة المنظمة (الصحف ـ المؤتمرات ـ المقابلات الصحفية) . واجتماع المجلس الوطنى الفلسطينى فى الجزائر فى نوفمبر ١٩٨٨ واعلان دولة فلسطين المستقلة . وقد كان لكل ذلك اثره فى توحيد القوى السياسية فى الخارج والطبقات الاجتماعية فى الداخل .

٢ ـ تأثير الإنتفاضة على المجتمع الاسرائيلى :

أ ـ من الناحية العسكرية : اطلقت صحيفة " هاارتس " الاسرائيلية فى نهاية عام ١٩٨٨ اسم (حرب الاستنزاف) على الانتفاضة (١١) .

ب ـ من الناحية الاقتصادية : حيث كانت لها اثارها السلبية على الاقتصاد الاسرائيلى وظهر ذلك من خلال تقرير وزارة المالية الاسرائيلية للخسائر المباشرة للانتفاضة بثلاثين مليون شيكل أى مايعادل ٩ مليون دولار يوميا (١٢) .

ج ـ من الناحية السياسية : نجحت الانتفاضة فى رسم خريطة سياسية جديدة لاسرائيل . حيث ظهرت اتجاهات جديدة للرأى العام فى اسرائيل بعد عام من اندلاع الانتفاضة . وذلك ما اظهرته نتائج معهد البحوث التطبيقية الاجتماعية حيث اوضحت ان ٣٠٪ من المبحوثين يؤيدون المفاوضات مع منظمة التحرير فى مقابل ١٣٪ فى عام ١٩٧٨ ـ كان ٤٥٪ يرفضون فكرة الانسحاب من أى جزء من الأراضى المحتلة فى مقابل السلام مع العرب . وفى يناير ١٩٨٩ كان ٣٥٪ فقط هم الذين اشاروا الى هذا الاتجاه . بينما وافق ٤٨٪ على مبدأ عودة كل أو بعض الأراضى المحتلة و ٢٠٪ فقط من المستجيبين هم الذين يقبلون فكرة الدولة الفلسطينية .

أما عن تأثير الانتفاضة على الاحزاب السياسية الاسرائيلية ، فقد أثرت على برامجها السياسية فى انتخابات نوفمبر ١٩٨٨ وكانت المسألة الفلسطينية هى جوهر المعركة .

كما عملت على زيادة الشقاق فى المجتمع الاسرائيلى . وخاصة بعد المؤتمر الفلسطينى الثامن عشر فى الجزائر والحوار الامريكى الفلسطينى .

ويظهر هذاالموقف واضحا من خلال جبهتى العمل السياسى فى اسرائيل وهما حزب الليكود (اليمين) وحزب العمل (اليسار)

حزب الليكود :

كان اتجاه الليكود الأساسى يتمثل فى :

١ ـ ضم الأراضى المحتلة

٢ ـ الأردن كدولة فلسطينية

٣ ـ رفض خطة كامب ديفيد للحكم الذاتى

٤ ـ تضييق الخناق على سكان الأراضى المحتلة لتركها

٥ ـ انشاء المستوطنات (٤٠ مستوطنة فى ٤ سنوات)

فى حين كان اليسار الجديد يقبل بمبدأ التفاوض مع المنظمة والانسحاب من معظم الأراضى المحتلة . ثم ظهر الاتجاه البراجماتى فى الايديولوجية السياسية لكلا الجناحين الحزبيين ، وهو الذى تمثل فى فكرة "الترانسفير " للقضاء على العرب.وجدت حركة كاهان لهذا الحل . ثم سعى الليكود بعد ذلك للمواءمة بين امكانية ضم الأراضى المحتلة ورفض الانسحاب منها كما هاجم الليكود مبدأ العمل فى الخيار الأردنى .

حزب العمل :

وكان اتجاهضحو المؤتمر الدول . ثم ظهر الخط الرسمى لحزب العمل من خلال خطة آلون التى تجمع بين خطة سياسية وأخرى عسكرية تؤازرها (قدمها شيمون بيرزواسحاق رابين فى مؤتمر صحفى) وهى التى تهدف الى عقد مفاوضات مع وفد فلسطين اردنى مشترك فى اطار مؤتمر دولى(اسمى) وانتخابات فى المناطق المحتلة بعد ستة شهور من عودة الهدوء (بمعنى توقف الانتفاضة)

ثم اقترب العمل من الليكود باعلانه المؤتمر الدولى للسلام ، لأن ذلك يعنى أنه لاتفاوضات مع المنظمة • ثم ظهرت خريطة سياسية ثلاثية مع انتخابات عام ١٩٨٨ تمثلت فى يسار الليكود ويمين العمل ، ثم ظهور الحزب الشيوعى الاسرائيلى ومشروعة التقدمى للسلام وتحول الاتجاه من الاتجاه الى الحوار من خلال حركة السلام الآن (التى تكونت فى عام ١٩٧٧ من بعض ضباط الاستياع الاسرائيليين) كحركة معارضة من أجل خلق وعى قومى جديد وظهرت جماعات المعارضة وكان لها خط سياسى واضح ينادى بوقف الاحتلال والتحالف مع جماعات اليسار من أجل التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية ، وكان عمل اليسار الاسرائيلى من أجل الاستقرار السياسى وفتح الحوار مع المنظمة •

٢ ـ ردود الفعل الاقليمية :

وهى التى تبدو من خلال الاستجابة الأردنية المصرية للانتفاضة ولان العامل الجغرافى قد وضع فلسطين بين كل من الأردن ومصر ، فقد كان ماتبقى من فلسطين بعد عام ١٩٤٨ قد جعل ماتشرف عليه مصر ادرايا من أرض فلسطين هو قطاع غزة ، كما خضعت الضفة الغربية لاشراف الأردن • ولعل هذا الواقع يجعل من الطبيعى ان يكون دور الأردن واضحا بدرجة أكبر وذلك لان الضفة الغربية اكبر بكثير من قطاع غزة ، وأن يكون للأردن كذلك استجابة اقوى لكن الذى حدث هو العكس فقد اوضح دور مصر كبديل منطقى للأردن وبصفة خاصة كقناة للتواصل مع واشنطن • كما أن تدهور علاقة منظمة التحرير الفلسطينية بالأردن جعلها توطد علاقاتها مع مصر ، ولذلك فلقد ساند ياسر عرفات عودة مصر لمنظمة المؤتمر الاسلامى وجامعة الدول العربية • كذلك فقد نجح الرئيس حسنى مبارك فى بعث دور مصر فى الحركة العربية دون التضحية باتفاقات كامب ديفيد • كما ظهر دوره فى الوساطة بين المنظمة وواشنطن من يناير ١٩٨٨ كما أن مسألة طابا ونجاح مصر فى حلها دبلوماسيا وقضائيا قد دعم موقفها فى العالم العربى • ولم تكن مصر تمثل الفلسطينيين ولكنها كانت بمثابة مساند لها •

٣ ـ ردود الفعل العالمية :

ويمثلها كل من :

١ ـ مكانة الانتفاضة فى الرأى العام الأمريكى

٢ ـ وفى المجتمع الأوربى ٠

ونعرض لكل منهما فيمايلى :

١ ـ الانتفاضة فى الرأى العام الأمريكى :

كانت هناك فجوة واسعة بين مايفكر فيه المجتمع الأمريكى ومانفعله الحكومة الأمريكية وظهر الرأى واضحا من خلال الاستقصاءات المتعددة التى أوضحت صورة اسرائيل المهزوزة لقبضتها على الثائرين ، وظهر اتجاه الكف عن مساعدة اسرائيل ٠ وظهرت نسبة كبيرة (٤٢٪) من اليهود الأمريكيين تندد بالأعمال الاسرائيلية غير المقبولة ٠ كما ظهرت الأغلبية التى تؤيد قيام الدولة الفلسطينية المستقلة ومشاركة المنظمة فى مباحثات السلام ٠

وأصبحت معدلات التعاطف مع الفلسطينيين فى الزيادة فى مقابل النقص مع اسرائيل ثم ظهر الربط بين حق تقرير المصير للشعب الفلسطينى والدولة المستقلة وتحقيق السلام فى الشرق الأوسط ٠

وقد كان الفارق بين الرأى العام الأمريكى والحكومة الأمريكية يظهر من خلال مجموعة من المؤشرات :

أ ـ فكرة اقامة الدولة الفلسطينية المستقلة

ب ـ المؤتمر الدولى للسلام ٠

جـ ـ المساعدات العسكرية لاسرائيل

د ـ رد الفعل نحو الانتفاضة ٠

٢ — المجتمع الأوربى والانتفاضة :

ظهر التحول فى الرأى العام الأوربى تجاه الانتفاضة ، ومن خلال المجتمع الأوربى مع مشكلة الشرق الأوسط عموما . وقد بدأت الدبلوماسية النشيطة منذ عام ١٩٨٨ سبقها أو لقاء لوزير الخارجية فى عام ١٩٧٠ ومشروع مؤتمر للأمن الأوربى والشرق الأوسط ، ثم اعلان بروسيلز (١٩٧٣) ومبادىء مفاوضات السلام مع اسرائيل واعلان لندن (١٩٧٧) واعلان فينيس (١٩٨٠) وكلها تهتم بالسلام فى الشرق الأوسط الى جانب تحسين أحوال معيشة السكان فى الأراضى المحتلة ، والنظر بصفة خاصة الى شئونها الادارية والثقافية والاجتماعية . وقد عارضت اسرائيل كل ذلك واعتبرته تدميرا لها .

ثم دخل البرلمان الأوربى ليساهم فى ذلك من عام ١٩٨٤ ، و١٩٨٥ وليخطو خطوة متقدمة ، وتظهر فى احترام حق البقاء لكل دولة بما فيها اسرائيل مثل حق الفلسطينيين فى تقرير المصير .

وانفصل الاتجاه الأوربى عن الاتجاه الأمريكى . وذلك لأن امريكا كانت تفضل الاتفاقات الجزئية ، بينما ترغب أوربا الاستقرار العالمى . ثم ظهر احتجاج البرلمانيين على الممارسات الاسرائيلية القاسية فى الأراضى المحتلة .

أما عن دور الانتفاضة فى التغير الهام فى الاتجاه الأوربى ، فقد ظهر عندما بدأت الدول الاثنى عشر تتبنى سياسة جديدة ،وعقدت عدة لقاءات هامة على مستوى وزراء الخارجية لاقرار أهمية المؤتمر الدولى للسلام تحت اشراف الأمم المتحدة وحث اسرائيل على احترام قرارات جنيف الخاصة باحترام حقوق المدنيين فى وقت الحرب . كما ساندت المؤتمر القومى الفلسطينى ، ولقاءات متكررة مع ياسر عرفات وكان كل من الرئيس حسنى مبارك وياسر عرفات أقرب المقربين للموقف الأوربى .

وتحملت كل من فرنسا واسبانيا وايطاليا العبء الأكبر من هذا الجهود . ووضع كراكسى فى روما فى عام ١٩٨٩ خطة لوضع الأراضى المحتلة تحت الادارة الأوربية لحين اقرار الحل السياسى ثم كان التحول الكبير فى الاتجاه السياسى للبرلمان الأوربى باعلانه ضرورة أن يتضمن أى حل

سياسي اعترافا بحدود فلسطين التي يجب أن تضمن حق اسرائيل في البقاء والعيش في أمـــان داخل حدود معترف بها ٠

الانتفاضة الفلسطينية رؤية مستقبلية :

لعلنا نستطيع الآن أن نستشرف آفاق المستقبل في ضوء ما تحقق في الماضي ويتحقق الآن من تحولات مختلفة :

١ ـ في التوازن الدولي بعد عام ١٩٨٧ ، من خلال ازدياد وعي المجتمع الدولـــي لقطاعاته المختلفة بأهمية سرعة حل المشكلة ٠

٢ ـ ومحليا بظهور التوازن الجديد في المناطق المحتلة الذي ظهر من خلال :

أ ـ التحول الاجتماعي : وكانت اهم معالمه :

ـ ظهور الشباب في مكان القيادة ومعاونة الكبار مما قلل من الفجوة الاجتماعية٠

ـ الاهتمام بالمرأة وظهور اهمية الأسرة ٠

ـ ظهور التحول الاجتماعي الثوري ممثلا في حق تقرير المصير والثورة السياسية٠

ـ ظهور اللجان الشعبية المختلفة ٠

ب ـ التحول الاقتصادي : للمناطق المحتلة بالاستقلال عن الاقتصـــاد الاسرائيلي وارتباط الاقتصاد بالسياسة في الأراضي المحتلة ، من خـــلال برامج الاقتصاد المنزلي والصناعات البديلة ٠

جـ ـ التحول السياسي : من خلال التحول في مسألة الديمقراطية ، وظهور دور اللجان الشعبية في العملية السياسية ٠

ونتيجة لكل ذلك يمكن ان نأخذ بالتفاؤل التاريخي ، الذي يرى أن الانتفاضة قـــد قوت من وجهة النظر التفاؤلية في المستقبل افضل من الماضي ، كما حدث قبل ذلك في كثير من دول آسيا وافريقيا وامكانية انتصار الرجال غير المسلحين بكفاءة في مواجهة القوات المسلحـــة ولعل ذلك يؤكد ان الانتفاضة سوف تحقق اهدافها ٠

ومع هذه النظرة المتفائلة الا اننا لانستطيع ان نغفل اثر العوامل الطارئة التى قللت من فاعلية الدعم للانتفاضة ولعل من أهمها :

١ ـ الهجوم العراقى على الكويت وابتلاعها وساندة بعض الانظمة العربية والزعماء العرب لموقف العراق ومنهم ياسر عرفات مما قلل من جدية مساندة القضية الفلسطينية عامة والانتفاضة بصفة خاصة وطفت مساندة الكويت الجريحة على فلسطين الذبيحة .

٢ ـ مقتل كاهان الذى أدى الى زيادة التوتر والعمليات العسكرية وشبة العسكرية بين الاسرائيليين والعرب فى الأراضى العربية المحتلة ، مما يلقى بأعباء اكثر على سير عمليات الانتفاضة .

.. .. ..

الهوامـــش والمراجـــع

١ ـ - Salim Tamari : What the uprising means. Middle East Report, May. June 1988 No. 152. P. 24.

٢ ـ - Jamal R. Nassar and Roger Heacock : Intifada, Palestine at the crossroads. Praeger Publishers, New York 1990, pp. 16-17.

٣ ـ انظر نص هذا النداء ، ونداءات اخرى مماثلة فى المرجع التالى :
عبد الجبار عدوان ، الانتفاضة طريق الاستقلال الفلسطينى ، الكتاب الأول أنياب الخروف الطبعة الثانية رمضان ١٤٠٩ هـ ، ابريل ١٩٨٩ ، دار الشرق الأوسط للنشـــــــر القاهرة ، ص ص ١١٠ ـ ١١١ .

٤ ـ - Jamal R. Nassar ; Op. Cit., p. 74.

٥ ـ عبد الجبار عدوان ، الانتفاضة طريق الاستقلال الفلسطينى ، الكتاب الثانى الشهـــداء، الطبعة الثانية يوليو ١٩٨٩ دار الشرق الأوسط للنشر ، القاهرة ، ص ٥٦

٦ ـ عبد الجبار عدوان ، المرجع السابق ص ص ٥٦ ـ ٥٧

٧ ـ عبد الجبار ، المرجع السابق ص ١٥

٨ ـ - Suha Sabbagh; Women and the Intifada. The Return, November 1988, Vol. 1, No. 4, p. 24.

٩ ـ - Jamal Nassar, Intifada, Op. Cit. p. 129.

١٠ ـ - Jamal Nassar ; The message of the Intifada. M.E.I. 17 February 1989, No. 344., p. 18.

١١ ـ عبد الجبار عدوان ، المرجع السابق ص ٢٤ .

١٢ ـ - Jamal Nassar, Intifada, Op. Cit., p. 50.